لوران شارل فيرو

تاريخ بجاية

ترجمة: صالح بخوش

تقديم : البروفيسور جميل عيساني

دار تلانتيقيت

توطئة: «حتمية مراجعة تاريخ بجاية»

ثمّة أسباب عديدة تجعل من المونوغرافيا التي ألّفها الترجمان العسكري لوران شارل فيرو (1829-1888) سنة 1869 والموسومة بـ ‹تاريخ بجاية› مرجعا لا غنى عنه إلى يومنا هذا. أوّل تلك الأسباب أنّ الكتاب حين سَرَد مسار الأحداث التاريخية للفترة الممتدة بين القرنين الحادي عشر والثامن عشر لم يستند فقط إلى كافة المراجع المتاحة (استعمارية وغربية وإسلامية) بل استعان بطائفة من شهادات غير منشورة مستقاة من أفواه السكان الأصليين ظلت إلى زماننا هذا تفتقر إلى شيء من التمحيص والتحليل. ولعلّ من أمثلة ذلك المعلومات الواردة عن أولاد أمقران وصلتهم بالسلطة العثمانية، وبدرجة أخص مع مصلحة الكراستة (**المتكفّلة باستغلال خشب الغابات**). والأمر ينطبق كذلك على سرد أسطورة الحوار الذي دار بين الأمير الحمادي الناصر (القرن 11م) والولي الصالح سيدي تواتي (القرن 15م).

وتجدر في هذا المقام الإشارة إلى أنّ مؤلّف هذا الكتاب كانت له ‹يد مباشرة› في ‹إعادة السّلام› إلى بلاد القبائل، وقد حالفه التوفيق في نسج علاقات مع سكان المنطقة ممّا أتاح له إجراء تحريّات ميدانية والظفر بمعلومات من مصادرها الأولية. ثمّ إنّ فيرو ألّف كتابه بعدما غادر بلاد القبائل، وهو ما جعله ينأى بنفسه عن مسرح الأحداث ويجتهد في الربط بين الوقائع وتحليلها. حتّى وإن كان غرض فيرو في بادئ الأمر استقاء معلومات تصب في صالح السياسة الاستعمارية، إلاّ أنّ مقصده تغيّر لاحقا، فهو صرّح بأنّه كان ‹**يصبو إلى تمكين أهل البلاد مستقبلا من تحصيل فكرة جليّة عن تاريخ هذه المنطقة**›

قَدِم لوران شارل فيرو (1829-1888) إلى الجزائر سنة 1845 وعمره لم يجاوز آنذاك 17 عاما. وبعد انقضاء خمسة أعوام، صار ترجمانا عسكريا مساعدا من الدرجة الثانية. وبما أنه ألحق «بالقيادة العليا لبجاية» فقد قضى جلّ مساره المهني في القبائل والشرق الجزائري. وأثناء انتفاضة1871، تقلّد وعمره 41 عاما منصب ترجمان رئيسي ملحق بالقادة العسكريين لعمالة قسنطينة، ثم صار فيما بعد ملحقا بالحكام العامّين. وبفضل مقامه الفكري نال شرف رئاسة **الجمعية التاريخية الجزائرية** في 1876. وبعد عام من ذلك، استفاد من التقاعد وباشر مهاما ديبلوماسية قادته إلى طرابلس حيث شغل منصب القنصل العام لفرنسا، وبعدها إلى طنجة سنة 1884حيث تقلّد منصب وزير مطلق الصلاحيات لفرنسا. وفي 1911، ذكرت المجلة الإفريقية أنّه خلف لوتورنو (Letourneux) ونشرت نبذة عن توجّهه التاريخي ونشاطه السياسي والعسكري والفكري. (انظر تقرير الرئيس ل. بييزان (L. Paysant).

شارك فيرو في أهمّ العمليات العسكريّة الّتي أفضت إلى تغلغل الجيش الفرنسي في عمق جبال القبائل. كما أنّه كان شاهدا مهمّا على مقاومة **الشريف بوبغلة** منذ مطلع خمسينيات القرن 19م. والمطّلع على كتابه المعنون بـ ***« Essai de grammaire Kabyle et dialogue Français Kabyle »*** **(رسالة في النحو القبائلي والتخاطب الفرنسي- القبائلي)** يدرك مدى إلمامه باللغتين العربية والأمازيغية. وقد استغلّ مهاراته التواصلية في جمع الكثير من الشهادات الحصرية عن التاريخ المحلي. علاوة على ما سلف ذكره، تميّز فيرو بموهبة الرسم بالألوان المائية، فأبدع لوحات تصف «غزو الجزائر ومناظرها الطبيعية وطبائع أهلها»، إضافة إلى أنه تطرّق إلى دور المترجمين العسكريين في كتابه الموسوم:

« Les interprètes de l'armée d'Afrique » **(«مترجمو جيش إفريقيا»** (منشورات جوردان، 1876)). وقد رأى أنّ مهمّة أولئك المترجمين لم تكن مقتصرة فقط على العمل اللغوي، بل كان لزاما عليهم بذل المزيد

من الجهد في البحث والدراسة في سبيل **«التعريف بالجزائر والأقاليم المجاورة لها.»**

وبما أنّ لوران شارل فيرو كان يعمل في شرق البلاد، فقد شرع في نشر تقاريره حول بجاية والقبائل (تيكلات، واد الصومام، ...). وساهم تعاونه مع ***Recueil des Notices et Mémoires de la Société Archéologique de la Province de Constantine*** (**سجل تقارير ومذكرات الجمعية الأثرية لعمالة قسنطينة**) في نشر سلسلة من الدّراسات المتخصّصة عن مدن الشّرق الجزائري. وبحكم القيمة التاريخيّة التي تكتسيها بجاية، كان من باب المنطق أن تكون هذه المدينة فاتحة لهذه السلسلة.

ومن المهمّ في هذا السيّاق الإشارة إلى أن الفترة الممتدة من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر هي من أكثر المراحل غموضا في تاريخ المغرب الأوسط. وما بَلَغَنَا من ذلك الزمن سوى شهادات الفارس دارفيو في القرن 17م، ورحلات الحسين الورتيلاني (المتوفى سنة 1779) والدكتور بايسونال (في بجاية نحو سنة 1724) والرحّالة توماس شو في القرن 18 م. وحتى بداية القرن 19 م، كان بلوغ المناطق الداخلية أمرا متعذّرًا وكانت الشهادات الواردة في المخطوطات الإسلامية حينئذ بعيدة المنال. والحقيقة أنّ الجزائر كانت **«أرضًا عذراء تترقّب من يكرّس وقتا لدراستها»**، فهي على وجه الخصوص **«مُقْصَاةٌ من حيّز البحث المستفيض في علم النّقوش والآثار اللذين كانت أوروبا تستند إليهما بداية من القرن السابع عشر لتغطية العجز الحاصل في الوثائق الأدبية.»**

أما البحوث المنجزة في منتصف القرن 19 م، فقد استفادت من النشاط **«المتحمّس والمثمر للأساليب الأولى للاستعمار الذي كان يرنو أساسا إلى بعث إفريقيا الرومانية»**. إذ سرعان ما أنعش الغزو الاستعماري كثيرا من الوظائف لدى فئة المعرّبين، وعلى وجه أخص «جلب صدى الماضي الروماني لعلماء الآثار الدعم من لدن طائفة من المتطوعين: فوقف إلى صفّهم الأطبّاء والموظّفون وعلماء الدّين والمهندسون بدرجة أكبر وعكفوا

على ملاحظة الكتابات المنقوشة ووصف الآثار». وهكذا بات بمقدورنا الحصول على جملة من القرائن الواصفة لحالة بجاية والشرق الجزائري قبل وأثناء فترة إقامة فيرو بالرجوع إلى شهادات بعض المهندسين. ونذكر من أولئك عضو أكاديمية العلوم فرانسوا أراغو (1808-1809)، والنقيب الرسام ديلامار (1835-1843) إلى جانب النقيب المختص في مسح الأراضي أوجين ديوولف (1863-1872)، وكلّهم خريجو المدرسة ‹المتعدّدة التقنيات› أقاموا في أرض القبائل في فترات مختلفة. وحريّ بنا في هذا المقام تحليل فكرهم إزاء قضايا متباينة مرتبطة ‹بالأصول العرقية لسكان بلاد القبائل» بمعزل عن اختصاصاتهم المهنيّة.

يستهلّ الكاتب دراسته بوصف المدينة ومنطقتها عندما تحوّلت إلى حاضرة ذات نمط أوروبي، ثم يورد بعض الأساطير المتداولة عن أعيانها وكبار قادتها (الأمير الناصر، الفيلسوف القشتالي ريموند لولي،...) ليشرع بعدها في سرد مجريات الأحداث (مؤشّرات إحصائية عن السكان، ممارسة النشاط التجاري مع أهل المنطقة، الوضع الاقتصادي، المشاريع العمرانية ومشاريع فك العزلة – مع وسط البلاد وشرقها-، ...)

يتطرق فيرو باقتضاب إلى التاريخ القديم للمدينة، لكنّه يبسط الكلام في الحقبة الرومانية، مستثمرا المعلومات التي ساقها المستشرق أوغست شاربونو (1813-1882) عن قنطرة الماء بقرية توجة. وفي 1866، اكتُشِف في منطقة لامبيز الشاهد التذكاري الروماني الشهير الذي يروي حيثيات حفر نفق جبل ‹الحبل› ودور ‹الليبراتور› (المهندس العسكري) نونيوس داتوس في ذلك.

أما بشأن الاجتياح العربي، فقد أورد فيرو ما ذكره ابن خلدون معتمدا على مقتطفات مترجمة من كتاب ‹تاريخ البربر› للمؤلف بارون دي سلان (1801-1878). ورغم ثراء المراجع التي اهتمّت بالعصر الوسيط (دي ماس لاتري، الإدريسي، القيرواني، الغبريني، ليون الإفريقي،...)، يظلّ ابن خلدون المرجع الأساسي. تحرّى فيرو الأمانة إلى حد بعيد في سرد تاريخ الوقائع

والسياسة في بجاية أثناء تلك الفترة. فذكر علاقة بجاية بتلمسان، وتناول بالتّفصيل قصّة بناء حصن **تامزيزدكت** (قرب منطقة القصر)، ثم تحدّث عن دور الأسطول البحري لبجاية في خضمّ ‹التنافس› القائم في عرض البحر المتوسّط.

وشهد القرن 15م ‹فراغا› ناجما عن شحّ المراجع: فمؤلّفات ابن خلدون لم تجاوز أواخر القرن 14 م والمصادر الإسبانية لم تبدأ في الانتشار سوى في مطلع القرن 16م. والعجيب في الأمر أنّ الشهادات التي نقلها الأميرال العثماني **بيري ريس** (1470-1553) في مؤلفه ‹**كتاب البحرية**› لم تكن متاحة آنذاك.

انتقل فيرو بعد ذلك إلى التّفصيل في الأحداث التاريخية والعسكرية والسياسية التي طبعت القرن 16م. وسعيا منه لجعل القارئ يعي حجم التغييرات التي طرأت بسبب الاحتلال الإسباني، بدأ أولا بوصف حالة بجاية في ذلك الزمان. فأحصى فيها 21 حيّا، وذكر 25 مكانا للعبادة (مساجد وزوايا وأضرحة). ثم عرّف بالأبواب الستة (06) للحاضرة ووصف قصورها وحصونها الأربعة (04). وقد اعتمد في ما نقله على ما أوْرده الرحّالة ليون الإفريقي، وعدّد في الختام مختلف معاهدات السّلام والتجارة المبرمة مع الجمهوريات المسيحية.

ثم عمد لوران شارل فيرو إلى المقابلة بين مختلف مصادر المعلومات: الوثائق الإسبانية، على غرار مؤلفات المؤرّخ مارمول، دون إغفال للموروث الشفهي. وقد ترجم كتاب إبراهيم المريني وانتفع بما فيه (الحي الأندلسي، الإنزال في سيدي عيسى، ...). كما نوّه بالدور الفاضل لأبناء السلطان والعلماء بين المقاتلين،... وسلّط الضوء على الإهتمام الكبير الذي نالَهُ سقوطُ بجاية في أيدي الغزاة. لقد أيقظ ذلك في نفوس « **أهل الملّة المسيحية شتّى ألوان التعاطف الديني**». وهنا يورد فيرو تفاصيل ما جرى من تدمير ونهب وتخريب للقصور ودور العلم: «**شُحِنَت حوالي ثلاثين سفينة...**». وذكر أيضا تشييد وسائل التحصين، ولاسيّما برج موسى، ثم تساءل عن دوافع الاحتلال

الإسباني لبجاية.

وفي الختام، حلّل فيرو الدوافع التي حملت الأتراك على جعل الجزائر مقرًا لعاصمة البلاد بدلا من بجاية. وذهب إلى القول بأنّ ذلك مردّه إلى **«الطبع المتحرّر لسكّانها والذي يكون قد حال لزمن طويل دون توسيع نطاق الهيمنة الجديدة»**. وقد أحسن الرحّالة بايسونال (1724) وصف حال المدينة حين قال: « **في بجاية، كل شيء آيل إلى الدمار لأنّ الأتراك لا يصلحون شيئا.»**

على هذه الشّاكلة كانت علاقات الإسبان والأتراك بأهالي المناطق المجاورة لبجاية محدودة جدّا. وبالنسبة للعهد العثماني، يسوق لنا فيرو معلومات وردت في بحثه الخاص بالمسائل الاقتصادية، خصوصا استغلال الغابات وكذا الامتيازات التي نالها أولاد مقران. كما أعدّ فيرو دراسة عن منطقة مجانة، وذكر تاريخ قلعة بني عباس ومصير نسل السلطان سي ناصر (المقتول نحو سنة 1624م)، لاسيّما ولده الشهير سيدي امحند أمقران، بداية في ‹**أمعدان**› لدى بني بومسعود قرب ‹وادي غير› ثم في بجاية. ويعود تاريخ الوثائق المترجمة والمنشورة إلى سنة 1682، وهي تسرد أنباء عن أبناء سيدي عبد القادر. ورغم أنّ فيرو يجزم أنّه أخفق في الحصول على وثائق أقدم من ذلك (عن سيدي امحند أمقران ذاته) محفوظة في ‹زاوية أمعدان›، إلاّ أنّه يعرض وثيقة يعود تاريخها إلى 1702 تتحدّث عن خلافة سي محمد شريف لأبيه سيدي عبد القادر في تسيير شؤون الحكم في مدينة بجاية.

الحقيقة أنّ ذكر كراستة برباشة، وتقديم لمحة عن شخصية سيدي عبد القادر (وفقا لما دوّنه الفارس دارفيو في 1674)، ووصف ورشات بناء السفن البحرية في بجاية وكذا علاقة شيخ الكراستة بممثّلي الأهالي القبائل كلّها معطيات تتيح لنا فهم طبيعة العلاقات التي كانت تربط السلطة التركية في بجاية بسكان المنطقة. ومن بين المعلومات الهامّة الأخرى، نذكر سبب غلق زاوية سيدي تواتي (التي كانت تضمّ بين جنبتاها 200 طالب علم) ووضعية

قبائل بني بومسعود ومزّاية إلى غاية احتلال الفرنسيين للمدينة في 1833.

خلال الخمسة عشر عاما الأولى، فضّل الفرنسيون التقوقع داخل المدينة. ويورد فيرو، الذي وفد إلى بجاية سنة 1850، مختلف قبائل حلقة بجاية **(le cercle de Bougie)** متطرّقا إلى جوانب متفرّقة: الأصل، المناطق والأقاليم، الشؤون الاقتصادية، الانتساب إلى الطريقة الرحمانية (ثارحمانيث). ثمّ يحصي سكان المنطقة ويلاحظ أنّ سبع عددهم يحوزون على بنادق (حسب إحصاء 1866). وفي الختام، يضع بين يدي القارئ وصفا مشيدا بسكان بلاد القبائل وبنمط عيشهم: تنظيم المجتمع، العرف، القانون، العناية، مكانة المرأة، الحزم في العمل، وما إلى ذلك.

يفصّل فيرو بعد ذلك في سقوط بجاية في قبضة الفرنسيين. ويذكر إقامة الأمير عبد القادر في بلاد القبائل (في لعزيب أومعمر في 1839). ويخصّص حيّزا واسعا للملحمة الأسطورية للشريف بوبغلة مشيرا إلى أنّ هذا الرجل حرص على إضفاء الصبغة السياسية والدينية على جميع أفعاله. يعود تاريخ شهادة فيرو إلى سنة 1854 إلاّ أنه أورد أيضا مقاومة لالا فاطمة نسومر وحادثة إلقاء القبض عليها في1857. ثم يختم ذلك بأشعار شهيرة من إبداع السكان الأصليين تتناول جميع الوقائع، المجيدة والأليمة على حد سواء. ولعلّ أشهر تلك الوقائع الموصوفة كارثة الثّلج التي حلّت في 1852 وعادة الحج السنوي ببجاية، والتي أحياها أرشيدوق النمسا، لويس دو هابسبورغ سنة1897. وفي نهاية المطاف، يورد إعلان الإمبراطور نابوليون الثالث لجيش إفريقيا في 07 جوان 1865.

جدير بالذكر أنّ فيرو أشار إلى قصّة الأكاديمي فرانسوا أراغو وتكلّم عن ‹**رحلته العجيبة في ربوع بلاد القبائل**› في 1808. وهذا بحق ‹**حدث يراه الانكشاريون أمرا خارقًا للعادة**›. وتسمح لنا هذه الرحلة المفاجئة وغير المبرمجة باستقاء معلومات في غاية الأهميّة عن وضع هذه المنطقة في أوائل القرن 19 م (أي قبل بداية الاحتلال). في ذاك الوقت، كانت لفرنسا علاقات طيّبة مع الإيالة، وكان ممثّل الدّاي (في السلطة العثمانية) ببجاية

يرفض الإذن لها بمباشرة حملتها. وقد وقّع له أراغو على إبراء يعفيه من كلّ مسؤولية. وحملت قصّته المنقولة في مؤلفه ‹قصة حياة› شهادات غير مسبوقة عن حالة انعدام الأمن التي كانت تخيّم آنذاك على تلك الأرض.

«كانت كلّ قرية بمثابة جمهورية صغيرة لا يمكن العبور عبر إقليمها دون الحصول على الإذن».

فرغ فيرو من تصنيف مونوغرافيا بجاية بقسنطينة في شهر ماي 1869 حين كان يعمل في الشرق الجزائري. ولا ريب أنّه اعتمد على بعض المقالات المنشورة في ‹**المجلة الإفريقية**›، إلاّ أنّه استغلّ أيضا كتابات من سبقوه (لابان، دوماس، كارات، دو لابريمودي، شاربونو، دي ماس لاتري، وغيرهم) إضافة إلى استناده إلى عدد كبير من الاكتشافات الأثرية التي أنجزت بعد مغادرته مدينة بجاية.

عندما كتب لوران شارل فيرو هذا الكتاب، أشار إلى أنّ الدور المنوط بالأجيال القادمة من مؤرّخي الجزائر هو وضعه في ميزان النّقد والحكم عليه وكذا استنباط آراء مجملة عنه. وبات اليوم ممكنا وضع هذا السرد التاريخي في خانة المقارنة مع مختلف التطوّرات الحاصلة في شتّى الميادين. ونلاحظ أنّ شارل فيرو لم يسعه أن يستغلّ على أكمل وجه أهمّ مصدرين إسلاميين عن بجاية، وهما المؤرّخ ابن خلدون (1332-1405) وعالم السير الغبريني (1246-1304). والواقع أنّ بارون دي سلان لم يترجم سوى مقتطفات من ‹**كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**› (1847-1851 و1852-1856) و‹**المقدّمة**› (1863-1866) لابن خلدون. أما بخصوص المستشرق **أوغست شاربونو**، فلم يكشف النّقاب سوى عن مختصر من كتاب ‹**عنوان الدراية**› (**فهرس علماء بجاية**) رغم أنّه أوثق وأكمل مصنّف حول علماء بجاية في العصر الوسيط، وهو مرجع ثري لا غنى عنه لمن أراد فهم معالم التاريخ السياسي والفكري والعلمي والديني لبجاية على وجه الخصوص وللمغرب بشكل عام. في ذلك الوقت، كانت نسخ تلك المخطوطات نادرة

جدًا وكان الغموض ما يزال يلفّ الكثير من الوقائع المنقولة، تماما كما هو الحال بالنسبة للمباني التاريخية أو لأسماء العلماء.

ولا يفوتنا في هذا المقام التنويه بأنّ مونوغرافيا بجاية قد نُشِرت في وقت كان الأمل يحدو معظم المستشرقين العاملين في الجزائر لخوض مغامرة فكرية فريدة: البحث عن مخطوط ‹**النبذة المحتاجة في أخبار صنهاجة وبجاية**› للمؤرّخ ابن حمّاد (1150-1230). وهذا الكتاب من أقدم المصادر عن تاريخ بجاية والمغرب. فقد اعتمد عليه كثير من المؤرّخين اللاحقين، لاسيّما ابن خلدون (الذي أقام في بجاية في 1352 ثم في الفترة الممتدّة بين 1365 و1366). ويبقى هذا المخطوط إلى يومنا هذا في حكم الكتب المفقودة. ومن جملة المصادر الإسلامية التي لم يعثر عليها فيرو ‹**كتاب البحرية**› للأميرال العثماني بيري ريس (1470-1553)، وهو مرجع في غاية الأهميّة في وصف المدينة خلال العصر الوسيط، وعرض ملامح شخصية سيدي تواتي (1375-1495) وإبراز دور زاويته.

وبخصوص ترتيب الوقائع التاريخية، نلاحظ إغفال حقبة ما قبل التاريخ. كما نرى أيضا عدم استغلال المسلّات الليبية البربرية للحديث عن التاريخ القديم. وفي حقيقة الأمر، كان من الأحرى البدء ‹**بإزاحة كلّ ما يحمل البصمة الرومانية، ثم محو كل الأمارات الفينيقية، عندها يمكننا نعت ما بقي من هذه الغربلة بالتراث الليبي البربري**.›

وعلى صعيد آخر، منذ قرابة قرن ونصف من الزمن لم يطرأ أيّ تطوّر بشأن البحث في عهد الوندال والبيزنطيين (باستثناء صورة البربر الخاصّة المأخوذة من وصف كوريبوس، الشاعر المولود في شمال إفريقيا). والأمر سواء بالنسبة لمرحلة بداية الغزو العربي.

أما فيما يخصّ العصر الوسيط، فقد أفاض فيرو الكلام في الأمور التّجارية مُحصيًا مختلف معاهدات السلام والتجارة المبرمة مع الجمهوريات المسيحية. والظاهر أنّه غير مطّلع على المعطيات الرئيسية التي أوردها

عالم الرياضيات الإيطالي الشهير ليوناردو فيبوناتشي (1170-1240) في كتابه ‹*Liber Abaci*› المنشور سنة 1202. علاوة على ما تقدّم، لم يستطع فيرو توضيح الدور الجليل الذي أدّته بجاية في نقل المعرفة أثناء العصر الوسيط، ودليل ذلك إقامة نفر غفير من العلماء الأفاضل المتبحّرين في كافة ضروب المعرفة في المدينة حينا من الدّهر. وفي النّهاية، يبدو أنّ بعض المعلومات المذكورة حول مواضع البنايات يشوبها الخطأ، كما هو الأمر بالنسبة لموضع قصر اللؤلؤة الذي يقول فيرو أنّه في بريجة في حين تشير المراجع الأخرى المتاحة إلى أنّه يقع من جهة حصن البحر.

لقد بات اليوم ممكنا إتمام العمل الذي أنجزه فيرو عن أولاد أمقران، العائلة 'ذات التأثير الديني الأكبر'. ومن شأن استغلال الوثائق التي عُثر عليها مؤخّرا إماطة اللّثام عن العلاقات التي كانت تربط سيدي امحند أمقران بالأولياء الصالحين في بجاية وضواحيها. أما بخصوص الحقبة الاستعمارية، فمن العجيب أن نرى المؤلف لوران شارل فيرو يغفل تحليل ثورة 1871. والواقع أنّه ما زال وقتئذ في قسنطينة عندما نُقِل إليها الشّيخ أحدّاد وأودع السجن بها.

وما يميّز لوران شارل فيرو في عرضه للأحداث التّاريخية هو عدم اكتفائه بسرد الوقائع، بل إنّه يربط بينها ويحلّلها على نحو جعل من كتابه 'تاريخ بجاية' أحد أهمّ المراجع التاريخية بعد مرور قرن ونصف من تأليفه استجابة 'لفضول طبيعي يرمي إلى استكشاف تاريخ بلد شاءت الأقدار أن يعيش المستعمرون في كنفه.'

الأستاذ الدكتور جميل عيساني

مدير بحث بالمركز الوطني للبحث في عصور ما قبل التاريخ

وعلم الإنسان والتاريخ - الجزائر

تاريخ بجاية

"من يمعن النّظر في أحوال مدينة **'صلداي'** القديمة، إبان العصور الوسطى، يدرك أنّها كانت آنذاك متربّعة على عرش المعرفة والتّجارة في السّاحل الإفريقي (...) ويدرك أيضا أنّ نعتها في أقطار العالم الإسلامي **بالمدينة المقدّسة وبمكة الصغرى** وتفرّدها بفتح أبوابها لكثير من الموريسكيين واليهود المطرودين من بلاد الأندلس واحتضانها لهم بين أسوارها إنّما هي دلائل كافية وافية تجعل المرء يحجم عن الخوض في المزيد من التّفاصيل. وقد ساد الاعتقاد أنّه لو أفلح القبطان الباسل بربروس في القرن 16م في تخليص هذه المدينة من قبضة الإسبان الذين احتلّوها منذ 1509 م، لكان ربما اتّخذها مقرًا للقيادة التركية في الساحل البربري ولظلّت الجزائر العاصمة، التي شاءت الأقدار والظروف أن تتبوأ مقاما أسمى، مجرّد قرية قليلة الشّأن ... "

لوران شارل فيرو، 1869

ثمّة أسباب عديدة تجعل من الدّراسة التي ألّفها الترجمان العسكري لوران شارل فيرو (1829-1888) تحت عنوان **'تاريخ بجاية'** ونشرها عام 1869 تظلّ إلى يومنا هذا مرجعًا لا غنى عنه. وأوّل تلك الأسباب أنّ الكتاب حين عرض مسار الأحداث التاريخية للفترة الممتدة بين القرنين الحادي عشر والتاسع عشر لم يستند فقط إلى كافة المراجع المتاحة (استعمارية وغربية وإسلامية) بل استعان بطائفة من شهادات غير منشورة مستقاة من أفواه السكّان الأصليين بقيت إلى زماننا الحاضر تفتقر إلى شيء من التّمحيص والتّحليل. ولعلّ من أمثلة ذلك سرد أسطورة الحوار الذي جرى بين الأمير الحمادي الناصر (القرن 11 م) والولي الصالح سيدي تواتي (القرن 15م)، والأمر ينطبق كذلك على تلك المعلومات الواردة عن أولاد أمقران وصلتهم بالسلطة العثمانية.

وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى أنّ مؤلّف هذا الكتاب كانت له 'يد مباشرة' في 'إحلال السّلام' في بلاد القبائل، وقد حالفه التوفيق في نسج علاقات مع سكان المنطقة ممّا أتاح له إجراء تحرّيات ميدانية والظفر بمعلومات من مصادرها الأصليّة. ثمّ إنّ فيرو ألّف كتابه بعدما غادر بلاد القبائل، وهو ما جعله ينأى بنفسه عن مسرح الأحداث ويجتهد في الربط بين الوقائع وتحليلها.

I.S.B.N: 978-9947-67-264-8

9 789947 672648